هل الحضارة الغربية على جرف هار؟

ما أسباب القلق ؟ ما اركان الحضارة الغربية ؟

ما الاخطار التي تهددها ؟

١ — مظاهر القلق

يذهبُ فريق كبير من فلاسفة الغرب وكتّابه الى القول بان الحضارة الغربية على شفا جرف هار وانهُ اذا اتابت اوربا حرب اخرى كالحرب التي اتابتها منذ اربع عشرة سنة قضت على العمران الاوربي وغادرت بلدانهُ قاعاً صفصفاً . ومتذكرو اميركا حيث جدّد الاوربيون شبابهم وفتحوا بلداناً غامرة فعمروها واستنبطوا من صدر الارض ثروة طائلة بمرق جباههم وقوة سواعدهم يوجهون السؤال التالي على صفحات جرائدهم وفي صدور محافلهم وانديتهم — يقولون : وبعد هذا الى اين نحن صائرون ؟ اما وقد ملانا معدنا فما هي الخطوة التي امامنا ؟ كذلك في اليابان ترى فتيانها الذين يشاهدون امام اعينهم انقاض عصر القِدَم بية وقد تخلى عنهُ آباؤهم لتوطيد اركان النظام الجديد ، يتساءلون في رزانة وجدّ ماذا نعمل ؟ ابقى سائرين على الطريق الذي اختطهُ لنا اسلافنا فنخوض حضارة الكهربائية والفولاذ بهمة جديدة وعزم جديد أم نرجع القهقرى من منتصف الطريق ونحيي معالم عصر كادت آثارهُ تبيد ؟ وعلى هذا المنوال ترى المفكرين في كل الاقطار يتساءلون في حيرة وارتباك هل الحضارة التي نحن في غمارها تسير سيراً مطرداً الى غاية عليا او هل اخذت تنحطُّ ويوم اضمحلالها اضحى على الابواب ؟

وليس ينفرد جمهور الفلاسفة والمفكرين في تأملهم مصير مدنية الغرب على هذا المنوال. بل يشاركهم في ذلك رجال السياسة ايضاً. ففي ايطاليا نجد اصحاب المعتقد الفاشستي قد قضوا على الديمقراطية والاشتراكية ونظموا الصناعة والعمل وتسيير الاموال نظاماً فعّالاً لم تنلهُ امة اخرى من قبل وبذلك مهدوا السبيل اما التعاون بين المتمولين والعمال او لحرب تثور بينهما فلا تبقي ولا تذر. وفي روسيا قضى البولشفيك على الارستقراطية والديمقراطية محاولين أن يخلقوا دولة شيوعية باوسع معاني الشيوعية ، فاذا نجحوا في ذلك كانت دولتهم هذه خطراً يهدد كلَّ دولة اخرى تقوم على قواعد تخالف اركان الدولة

البلشفية . والمانيا تتقلب مقضوضة المضجع بين احزابها الوطنية واحزابها الاشتراكية والجمهورية وكتلة شعبها التي تسير في عملها اليومي وكفاحها في معترك الحياة مقتنعة ان حل السيادة لم يبدُ بعدُ . وفرنسا تقف في ساعة لصرها المبين تحصي الخسائر الفادحة التي تكبدتها لاحراز هذا النصر الموهوم . وانكلترا المنصورة تراها جالسة على عرشها الامبراطوري تنظر الى امبراطوريتها فتجدها قد زادت سعة وغنى ولكنها ترى كذلك مستعمراتها الحرة تطلب استقلالاً وتفوز به الى حدٍّ بعيد. ثم تتأمل قليلاً فتدرك ان الحالة المالية والصناعية في اثناء الحرب الكبرى قد قضت على ذراعتها فهبَّ المسئولون واصحاب الصناعات بعد الحرب يسعون لبيع بضائعهم في اسواق يزاحمهم فيها الالمان والاميركيون اشد زحام فيجدون الفوز فوق طوقهم والضرائب العالية تثقل كواهلهم

اما اميركا فتبدو لاول وهلة غير خاضعة لهذه الثورة الفكرية والسياسية الخطيرة. تراها قائمة بين محيطين في بلاد شاسعة غنية وأبناءها رانعين في بحبوحة من العيش ، ومن فيض اموالهم يقرضون ام اوربا فتحسبهم قد بلغوا الغاية العليا من الرخاء والاطمئنان . ولكن النقاد من اميركيين واوربيين لا يرون هذا الرأي . فاينشتين يسخر من كل الاميركيين وسيفريد يراهم غماماً يطنُّ وصنجاً يرنُّ ، ويؤيدهما في ذلك طائفة من النقاد الاميركيين انفسهم

٢ — اركان الحضارة الغربية

يراد بالحضارة الغربية لدى موازنتها بالحضارة الشرقية حضارة مبنية على العلم والصناعة والآلات ازاء حضارة قائمة على الزراعة والصناعات اليدوية . فهي في الواقع حضارة ميكانيكية . وعمرها لا يرجع الى اكثر من مائتي سنة اي الى اوائل القرن الثامن عشر على الاكثر وعندي ان نفوذها آخذ في التوسع والانتشار بدلاً من الضعف والتقلص

فالركن الاساسي الذي تقوم عليه مدارهُ آلات تدبرها قوة عظيمة تفوق قوة الانسان وتضاعف مقدرتهُ على صنع المصنوعات . فالعلوم الطبيعية بفروعها المختلفة اصبحت عبداً في ايدي ابناء الحضارة الغربية يقيمون عليها بناءها الفخم . وقد اقتضى عصر المستنبط الفرد وصار لابدَّ من البحث العلمي المتواصل في العلوم الطبيعية على اختلافها لابداع الآلات الجديدة ولنشر المصنوعات في مختلف الاسواق . ولما كان المال الذي ينفق في نشر العلم وترقيته يجنى من الضرائب التي تجبى من اصحاب الصناعات ومن هبات الاغنياء فلا ينتظر ان ينضب لمصباح البحث العلمي زيت او يطمس لهُ نور

والحضارة الآلية التي نحن بصددها تختلف عن كل الحضارات السابقة في انها حضارة

حيوية تحمل في طياتها بزور بقائها وتجديدها . ولما كانت هذه الحضارة قائمة كما قدمنا على الصناعة والعلم والاستنباط واتساع الاسواق كان لا بدَّ لها من ان تتغير تغيراً سريعاً لان العلم يتجدد ويتحول كلَّ يوم وهو اساس الاستنباط وركن الصناعة . فلم يكد عصر البخار يثبت على دعائم متينة حتى حلَّت الكهربائية محلَّهُ . ولم تكد الكهربائية تسيطر على كل القوى التي سبقتها في المعامل والصناعات حتى أخذت آلة الاحتراق الداخلي تزاحمها وتسبقها

فاذا سلمنا ان هذه الخصائص تميز الحضارة الغربية — ركنها العلمي والميكانيكي — فهل نستطيع ان نسلم كذلك ان هذه الحضارة صيحة في واد او سراب لا يلبث ان يلمع حتى يزول او حادث من حوادث التاريخ لا يلبث ان ينقضي ويحلَّ نظام آخر من نظم العمران مكانهُ ؟ هل يتوقف جمهور الناس يوماً ما عن طلب البضائع التي تصنع بالآلات فيقضي على المصانع الكبيرة التي تخرجها وتقفل ابوابها ؟ هل يحتمل ان يضعف العلم عن اغراء الرجال بوقف حياتهم وذكائهم وصبرهم على احيائه وتجديده بحاثهم ومكتشفاتهم ؟

ان جواباً بالايجاب عن هذه الاسئلة يحتاج الى تمنت كثير . فالعلم ليس وقفاً على طائفة واحدة من الناس ورجال العلم لا ينحصرون في طبقة معينة من طبقات الشعب وعالم تخدعنا كل الظواهر لا نجد سبباً واحداً يقنعنا ان الصناعة والعلم سينحلان وينقرضان. وهاكفيا قلنا وجوه المسئلة الركنان اللذان تقوم عليهما الحضارة الغربية في صميمها

٣ — الخطر الاسيوي

فاذا كانت الحضارة الغربية في مأمن من خطر داخلي كالخطر الذي قدمنا ذكرهُ ينتابها ويقضي عليها ، فهل لدينا ظاهرة من الظواهر تدلُّ على ان امة من الامم القاطنة اسيا تستطيع ان تغزو اوربا سلماً او حرباً وتبيد النظام الآلي العلمي الذي تقوم عليهِ حضارتها ، من غير ان تتسلح بهذا النظام نفسهِ لتستعملهُ اداة لقضاء ما ربها ؟

مما لا ريب فيهِ ان بعض الامم الاسيوية شرعت تأخذ عن اوربا بعض اركان حضارتها ومظاهرها واشهر هؤلاء الامة اليابانية التي لا تزال على ما بلغتهُ من التقدم في هذا المضمار تعتمد على الغرب في كثير مما تحتاج اليهِ من الادوات الميكانيكية والمبادئ العلمية التي تبني عليها المخترعات والمستنبطات. فاذا لم ينحطَّ الابداع العلمي في الغرب — ولسنا نعرف دليلا يشير الى ذلك — فمن المرجح كثيراً ان ما من امة من امم الحضارة الزراعية في آسيا او افريقيا تستطيع ان تباري الغرب في ارتقائهِ العلمي والميكانيكي . واذا صرفنا النظر عن هذه الوجهة من وجهات البحث لم نرَ في احدى هذه الامم ما يؤيد القول بان منها امة تستطيع ان تغزو اوربا بجحافلها كما غزت قبائل الشمال الامبراطورية الرومانية وقطعت

اوصالها ، الاّ اذا اقتبست اصول الحضارة الغربية وقامت ابناء الغرب فيها . وحينئذٍ اذا حاربت اوربا بسلاحها وانتصرت عليها فلا يقال ان الحضارة الغربية قد بادت لانها في الحقيقة تكون قد انتقلت من مكان الى آخر على سطح الكرة الارضية

٤ — خطر الانحطاط الفني

واذا نظرنا الى حقيقة الحضارة نظرة محصورة في الادب والفن ظهرت بوادر الانحطاط اكثر وضوحاً من بوادر الانحطاط في العلم والصناعة . هنا نقترب من موضوع يصعب تحديده وعليه يتعذر البحث فيه بحثاً علميًّا منتظماً . فاذا نظرنا الى آيات الآداب الغربية التي ظهرت في خمسين السنة الاخيرة لم نرَ فيها دليلاً ما على انها اخذت في الانحدار من قمة المجد . بل يذهب نفر من النقاد الالمعيين الى ان الادباء في هذا العصر — عصر السرعة والماكنة — يضاهون في قوتهم وبلاغتهم اعظم الكتّاب في اي عصر من العصور بعد ظهور الاسلوب الروماني الفخم. انا لم نأتا لنعرف بين كتّاب العصر الحديث كاتباً يوضع في مصاف هوراس او شكسبير او غوته ، ولكننا نذهب كذلك الى ان ادباً مثل ادب هؤلاء الاعلام لامكان لهُ في حضارة تقوم على اساس يختلف كلّ الاختلاف عن حضارة عصورهم . واذا كانت فنون الشعر قد اخذت تفقد ما كانت تتصف به من فخامة وروعة فسبب ذلك ليس انحطاط القوى العقلية بل سببهُ ان الخرافات التي بُنيت عليها اشعار القدماء لاتمتُّ بسبب الى روح ابن العصر . وعندي ان خيال علماء كاينشتين الالماني وبوهر الدانماركي وملكن الاميركي يفوق خيال شعراء كلتن الانكليزي وفرجيل الروماني ؟

وما يقال عن الآداب يقال عن الفن . وهنا كذلك نسلّم جدلاً ان عصر الآلات لم ينجب في فنون البناء والنحت والتصوير ما يضاهي آثار الفن التي خلفتها القرون الوسطى. ولكن هذا إنْ يدلُّ على شيء فيدلُّ على ان عصر الآلات لا يزال في مهدهِ وان ابناءهُ لم يوجدوا فنًّا يعبر عما توحيه اليهم مظاهر هذا العمران الجديد ، مع ان هناك تباشير فن جديد يتفق مع روح العصر نرى آثارهُ في محطّات السكك الحديدية وآلات النقل والانتقال على اختلافها والمعاهد العامة ومباني المعامل وناطحات السحاب . فاذا اعترض معترض ان ابناء هذا العصر لم يبنوا كنائس تضاهي الكنائس التي بناها ابناء القرون المتوسطة اجبناهُ ان القرون الوسطى لم تبنِ طرقاً وحمامات وقناطر للماء مثلما بنى الرومان قبلهم . ان لكل عصر روحاً تظهر في مبانيهِ. وروح كل عصر تختلف عن روح العصر الذي يسبقهُ او الذي يليهِ . قد يظهر في المستقبل ان ابناء هذا العصر لم يخلقوا فنًّا يضاهون بهِ فنون

العصور الغابرة ولكننا لا نستطيع ان نقول انهم بلغوا الآن في فنهم ذروة الارتقاء حتى ثبت انهم اخذوا في الانحدار منها

٥ — اخطار الحروب الاهلية والدولية

هل يجوز ان نمنى امم الحضارة الغربية بثورات او حروب اهلية تفتُّ في عضدها وتدكُّ قواعدها كما حدث لامبراطوريات العصور القديمة؟ اذا حاولنا ان نقيس الحاضر على الماضي وجب ان نفصل ذلك والحذر رائدنا الاول. فاننا مهما نقلْ في حالة العمال الآن في البلدان الصناعية نجد ان حالتهم المادية والاجتماعية والتهذيبية ومقامهم السياسي يفوق حالة العمال والعبيد في الامبراطورية الرومانية. فثورة مثل ثورة العبيد في رومية بعيدة الاحتمال في حضارة آلية مهما يبلغ ضيق العمال، لان العمال يطلبون إنْ طلبوا شيئاً زيادة وسائل الراحة والمدَّ في اسباب الرخاء — فطالبهم اذاً تقوم على رغبة في تأييد الحضارة الغربية مع توزيع منافعها على الجمهور توزيعاً عادلاً

ولكن ألا يحتمل ان تنشب حروب طاحنة بين الامم المتحضرة بالحضارة الغربية فتكون شؤماً على الحضارة نفسها تدك بنيانها وتخرب البلدان التي نشأت فيها وتنضب دماء الامم التي ابدعت مبادئها وشيّدت معالمها؟ من المرجح ان حروباً طاحنة تنشب في المستقبل تفني الدول في اتونها زهرة شبابها وكل ثروتها. ولكني لا استطيع ان اتصوّر حرباً تستطيع ان تفني الشعب كلَّهُ وتقوض اركان المعيشة التي يعيشها. واذا فعلت ذلك الى حدٍّ ما فان حيوية الشعوب المختلفة تبعث على انقاض الماضي النظامَ الآليَّ العلميَّ حيًّا من جديد، وتوطد اركان الرخاء المادي في فترة قصيرة. وقد ذهب الفيلسوف الاقتصادي الانكليزي جون ستيورت مِل الى انهُ اذا بادت الثروة الميكانيكية في امة من الامم امكن احياؤها في عشر سنين. وعليه لا نرى مسوّغاً للقول بان تعاقب الحروب في المستقبل يقضي على الحضارة الغربية. نقول ذلك من غير ان نتنقص في حال من الاحوال الضرر الناجم عن هذه الحروب. واذا سلمنا ان حروباً كهذه تقوّض اركان الحضارة الغربية في اوربا واميركا افلا تستطيع اليابان وقد بلغت شأواً بعيداً في الاخذ بحضارة الغرب ان تحيي هذه الحضارة من جديد بما في خزائنها وجامعاتها ومعاملها من بزور حيّة

فللاسباب المتقدمة نرى ان الحضارة الحاضرة المبنية على العلم والصناعة لن تحطّ وتضمحل كما انحطت الحضارات القديمة واضمحلت. (ملخصة بتصرف قليل من مقالة للمؤرخ الاميركي الاستاذ شارلس بيرد في مجلة هارپرز)